رواية لذة العمر

هزيمة ملاك الموت

جال ملاك الموت وهو في خفاء عن الأعين ، بين الناس يقضي فيهم ما عليه من واجب أخذه على نفسه من جوبيتر الآله الاعظم اذ وكل اليه قبض ارواح البشر عند ما تأذن الساعة ويحم القضاء .

ولم يتهاون ملاك الموت في القيام باعباء هذه المهمة اذ ليس من كائن حي الا وله عليه سلطان وقضاء لا دواء له .

وقد مر يوماً وهو في طوفه التقى بسليمان الحكيم واشرف من فوق عاتقه على حكمة كان يضعها يقول فيها : « المرأة الحمقاء أمر من الموت » فنفر وامتعض لهذه الحكمة وكبر عليه ان يكون بين المخلوقات البشرية هذا الجنس اللطيف الضعيف ويجرؤ مثل سليمان الحكيم على ان يجعله أشد قسوة ومرارة من الموت الذي يفجع به الناس ويمزق القلوب ويقطع الاحشاء ويسيل النفوس دموعاً حرى هي عصارة الحياة من قلوب المفجوعين .

كبر على ملاك الموت هذا وهو في ثوبه الاسود الحالك فحرك جناحيه وصعد الى السما يشكو الى الاله الاعظم افتراء الانسان عليه .

ولما ان كان في حضرته سجد اجلالا وقال له :

— إلهي الاعظم . لقد عهدت الي بأدق مهمة وأروعها مع الانسان فمضيت قائماً باعبائها لاداء هذه المهمة السماوية ولكن احزنني يا الهي الاعظم ان رأيت سليمان الحكيم يكتب آية من حكمه يقول فيها « المرأة الحمقاء أمر من الموت » . فكيف وانا موكل بالموت يكون هذا المخلوق الضعيف أمر منه ؟

فقال له جوبيتر في ابتسامة رقيقة :

— وهل ترى يا ملاكي ان سليمان الحكيم قد أخطأ القول ؟

فاطرق ملاك الموت وقال :

— لا شك عندي في ذلك يا إلهي . فأي شيء أمر من الموت ؟

قال الآله :

— أتريد أن تجرب انه على حق ؟

قال :

— نعم .

قال جوبيتر :

اذاً اهبط الارض بشراً . واذا أتيح لك ان تعاشر امرأة ثلاثين عاماً سوياً فثق انك على حق وان سليمان من المخطئين . واذا لم توفق الى ذلك فاعلم بانك ما أنت الا من المخطئين

فقال ملاك الموت :

— هذا علي هين

فقال له جوبيتر :

— اذاً فاهبط الارض بشراً سوياً

* * *

رأى الناس في مدينة عامرة شاباً غض الاهاب حسن الهندام رائع الطلعة جذاب المعارف يمشي في الارض الهوينا فتطلعت اليه الانظار وكان رفيقاً بالبائسين والمرضى كتب له شفاء شتى الامراض وأعضلها حتى ذاع صيته وتقرب اليه الناس من كل حدب .

وقد وقع الباهو من قلب كبير في المدينة وقدر عليه أن يؤهله من ابنته استير وهي فتاة شابة في روعة الجمال فأحبته وأحبها وكان حبها له عظيماً وحملت منه حتى اذا ما اتمت الشهر الثالث من حملها كانت تقابله بغضاضة فكان يحسب هذا ناجماً من عناء الحمل وهي فتية الا ان أنفتها تزايدت بالتوالي فلم يكن يحمل ذلك منها على سوء او كراهية .

وضعت استير غلاماً كان في طلعة صورة ابيه وأخذت كل يوم تزداد من الياهو نفوراً وجفاء وكان هو يقضي كثير وقته في الخارج حتى لا يزيد نفسه ألماً بما يسمعه من زوجه من مرارة القول المقذع . وانصرف الى مواساة المرضى والعناية بهم .

ولما أوفى الوليد على الثالثة من عمره أخذت امه تغريه بأبيه وتلقنه الالفاظ الجارحة من السباب والشتائم فكان الياهو يقابل هذا وهو كاظم غيظه موقن من براءة ولده

وأخذ هذا الابن يدرج بين سني حياته حتى عدا على الثامنة عشرة من عمره ولما يذهب بعد الى مدرسة بل طبعت أمه غرائز السوء في نفسه والكراهية لابيه حتى ضاق ملاك الموت ذرعاً وآلى على نفسه الا ان يستغفر لذنبه ويرجع الى إلهه مصدقا بما قال سليمان الحكيم : « المرأة الحمقاء أمر من الموت »

وقد أبى الا ان يودع ابنه قبل أن يصعد الى السماء فخلا به وقال له :

— انني مطلعك يا ولدي على جلية أمري . فاعلم انني ملاك الموت وقد احزنني ما نشأت عليه من خلق وانا عالم بأن الجريرة ليست واقعة عليك ولكنها راجعة الى امك . وقد بلوت المرأة فلم اطق صبراً وها انا صاعد الى السماء ولكنني سأعلمك مهنة تسعد بها لما اكتنه لك من حب . فكن طبيباً تشفي مختلف الامراض وتتنبأ بالموت والحياة وسيكون هذا مساعدتي اياك فاذا ما دعيت للعناية بمريض فانني سأظهر لك دون سواك فاذا ألفيتني عند رأسه فاعلم انه لا محالة ميت واذا كنت عند ناحية قدميه فانه لا شك ناج من يدي . فوداعاً يا ولدي

وقبله واختفى صاعدا الى السماء مستغفراً وتفرغ الولد لمعالجة المرضى فذاع اسمه اكثر من أبيه ملاك الموت

وحدث ان عزيز المدينة تولاه حزن مقيم لاصابة ابنته الوحيدة بمرض لم يجد أقطاب الطب حيلة في شفائه فكاشفه كبير وزرائه بأمر يوشع الشاب فأنفذه في طلبه حتى اذا وافاه قال له :

— لقد أصبحت انفاس ابنتي معدودة

وانبأني عنك كبير وزرائي . فعليك ان تشفي ابنتي فاذا تم لك ذلك فهي لك واذا قضي عليها فلن تبرح غرفتها حيا .

فقبل يوشع مكرها وهو موقن انه لا محالة من الهالكين . ولما ان كان في غرفة المريضة فاذا هو يرى اباه في ثوبه الاسود وهو قائم عند رأسها فلم يشك في انه ميت

ولكن كتب له الاله الاعظم النجاة اذ خطرت له فكرة فالتفت الى من حوله من الوزراء والاطباء وأمرهم بالخروج جميعاً من الغرفة فصدعوا بأمره ووقفوا دون الباب من الخارج يرقبون معجزة هذا الطبيب الشاب

ثم فتح يوشع الباب ومضى الى غرفة مجاورة وعاد يعدو سريعاً وهو خائف جزع وقال لابيه :

— اسرع يا أبي اسرع بحق الاله

فقال له ملاك الموت :

— انتظر حتى اقبض روحها

فقال له يوشع

— ان والدتي آتية فعجل بالانصراف

ولم يكد ملاك الموت يسمع اسم امرأته حتى انتحى الى ناحية المريضة فانتعشت وجرى الدم في وجهها واعتدلت في سريرها وضحكت ضحكة ملؤها الحياة وفتح يوشع الباب ودخل الوزراء والاطباء وعزيز المدينة فاذا هم يرون المريضة في عنفوان قوتها وروعة صحتها ولم تتمالك ان عانقت يوشع وقد سمع هذا أباه يقول :

« لقد صدق سليمان الحكيم . فها انا قد جزعت حتى من اسم المرأة وانا ملاك الموت »